

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
سورة الفاتحة (٩)
آخر سورة الفاتحة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "اشتملت هذه السورة الكريمة -وهي سبع آيات- على حمد الله وتمجيده،
والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العلیا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى
إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده
بالألوهية -تبارك وتعالى-، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى
الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتشبيهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم
القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، واشتملت على
الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع
سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فهذه المعاني التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مما اشتملت عليه سورة الفاتحة هي المعاني الظاهرة
المتبادرة، وإلا فإن هذه السورة لو أردنا أن نستخرج منها المعاني التي دلت عليها بطرق الاستنباط المختلفة،
وتوظيف ألوان الدلالة، فإن هذا أمرٌ سيطول، ومعلومٌ أن من أهل العلم من يستخرج من البسمة بمجرد ما
يقرب من ثلاثين وجهاً من القضايا المتعلقة بالتوحيد، وبعضهم يزيد على هذا، وأما الفاتحة فحدث ولا حرج،
وتجد أن الموضوع الواحد يستخرج له من ألوان الدلالات من سورة الفاتحة ما يثبت، إما بطريق اللزوم، وإما
بطريق التضمن أو غير ذلك.

فمثلاً يمكن أن يستخرج من سورة الفاتحة موضوع الإيمان باليوم الآخر وذلك من قوله تعالى: **{الرَّحْمَنِ**
{الرَّحِيمِ} (٣) سورة الفاتحة]، ووجه ذلك أن رحمته -تبارك وتعالى- بخلقه تقتضي أن يثيب المحسن بإحسانه،
وإلا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه -سبحانه وتعالى- لا يترك الظالم يأخذ حق المظلوم ويفوت ذلك من
غير اقتصاص له، فكثير من الناس -كما نرى- يكون ظالماً في الدنيا بأخذ حقوق الناس وقتلهم وما أشبه
ذلك، ثم يموت ولم يلق جزاءه بعد.

وإذا بدأت بالحمد، فإن "أل" هذه تدل على الاستغراق، فالذي يوصف بالحمد المطلق من كل وجه يقتضي
ثبوت ما يحمد عليه، ومن ذلك أنه يقيم داراً للناس يقيم فيها العدل التام، ويعطي كل ذي حق حقه، ويجزي
المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، كما قال الله -عز وجل-: **{وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ**
رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٧٥) سورة الزمر]، أي في الآخرة.

وقل مثل ذلك في قوله: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [٢) سورة الفاتحة] فإن ربوبيته -سبحانه وتعالى- أيضاً تقتضي إثبات اليوم الآخر، وكذلك الأمر صريح في قوله: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [٤) سورة الفاتحة] فإنه يدل على ذلك بدلالة المطابقة.

ثم في قوله: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** [٥) سورة الفاتحة] فإنه إنما يعبد من أجل تحصيل رضاه، والظفر بدار النعيم في الآخرة.

وفي قوله: **{وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [٥) سورة الفاتحة] أي نطلب العون على كل مطلوب دنيوي أو أخروي، ثم **{اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}** [٦) سورة الفاتحة] يدل على ذلك أيضاً، فإنه صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهكذا.

وإذا أردت أن تثبت قضية الإيمان بالرسول فإن ذلك يظهر من قوله: **{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}** [٣) سورة الفاتحة]، ومن الحمد؛ فإن حمده يقتضي ألا يترك عباده هملاً لا يأمرهم، وكذلك من الربوبية، فإن ربوبيته تقتضي أن يكون في مملكته أمرٌ ونهي، وهذا هو الذي يأتي به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وتثبت قضية الإيمان بالرسول أيضاً من قوله -تبارك وتعالى-: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [٤) سورة الفاتحة] فإن ثبوت اليوم الآخر يقتضي أن يكون ثمة ما تقوم به الحجة على الناس، وذلك بإرسال الرسل وإلا فكيف يعذبون ويحاسبون، والله يقول: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [١٥) سورة الإسراء]، وكذلك في قوله: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** [٥) سورة الفاتحة]، فإله لا يُعبد إلا بما شرع، فكيف يعبد من غير بعث الرسل؟.

وكذلك في قوله: **{اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}** [٦-٧) سورة الفاتحة] فالذين أنعم عليهم هم من ذكرهم بقوله سبحانه: **{مَنْ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ}** [٦٩) سورة النساء]، وكيف حصل الإنعام والغضب أصلاً بغير بعث الرسل؟، فهم فرق بين الناس.

فهذا مثال على دلالتها على هذه القضايا، فإذا أردت أن تنظر في المعاني التي يمكن أن تستخرج منها في دلالتها على أنواع التوحيد الثلاثة، ودلالاتها على كثير من قضايا الاعتقاد وجدت من ذلك أموراً كثيرة جداً. ما عليك إلا أن تبدأ من "أل" في قوله: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ}** تجد أن الحمد بدخول "أل" دل على الاستغراق، أي كل المحامد منسوبة إلى الله -عز وجل-، وهذا يقتضي أنه كاملٌ من كل وجه؛ لأنه لا يمكن أن تنسب جميع المحامد إلا لمن كان محققاً للكمال، وإلا فإنه ينقص من حمده بحسب ما نقص من كماله، فالمحمود من كل وجه هو الكامل من كل وجه، بذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهكذا لو أردنا أن نسترسل مع هذه المسائل لاحتاج ذلك إلى وقت كبير.

"وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}** [٧) سورة الفاتحة] وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}**، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}** [١٤) سورة المجادلة]".

هذه من اللطائف في هذا التفسير، بمعنى أنها ليست من المسائل الداخلة في المعنى الإجمالي، أو المعنى الأساسي للآية الذي جاءت لتقريره، لكنها من اللطائف والملح التي يذكرها بعض أهل العلم وينبهون عليها، وهم بين مكثراً ومقل في هذا، فإذا لم يظهر فيها وجه من التكلف فهي حسنة.

لذلك لو تدوّن هذه اللطائف والملح التي تذكر في تفسير سورة البقرة وفي التفسير عموماً مع قضايا التوحيد بجميع أنواعها، وكذلك القواعد التي تمر في التفسير، وما يتعلق بتطبيق أصول التفسير وقواعد التفسير، مثل: حمل اللفظ على أعم معانيه، وكذلك قضايا التضمن، وحمل اللفظ على الحقيقة والمجاز عند القائل به، وحمل المشترك على معنياه، وتدوّن أيضاً الإسرائيليات والموقف منها حيث إن التفسير مليء بالإسرائيليات، كما أن في التفسير كثيراً من القضايا الأصولية يحتاج طالب العلم أن يدونها ليستفيد منها، إذ لو دون كل هذه الفوائد والقواعد فإنه سيخرج بأمتلة بالعشرات بل ربما بالمئات، وعلى قدر تفتق ذهن الإنسان وإمامه واهتماماته بهذه الأشياء والتفطن لها، على قدر ما يكون عنده من الفوائد، ويكون عنده ثروة ممتازة.

"وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أصلهم بقدره كما قال تعالى: **{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}** [(١٧) سورة الكهف]."

يريد أن يقول: إن هذا من الأدب في التعبير حيث إنه يرد في بعض المواضع في القرآن ما قد يكون الكمال في عدم نسبه إلى فاعله مباشرة فيعبر عنه بالمبني للمجهول مثلاً ونحو ذلك، ففي قوله على سبيل المثال: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة] أضاف الله الإنعام إليه سبحانه بطريق الخطاب، ولما ذكر الغضب وإن كان الغضب صفة كمال في موضعها ولا شك لكنه ليس كالإنعام، لذلك قال: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة]، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذا التعبير استعمل لتهميشهم وإهمالهم فلأنهم لا يستحقون التنويه قال: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}** والله أعلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قول الله - عز وجل -: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** [(٨٠) سورة الشعراء]، فهو لم يصف المرض إلى الله بحيث يقول: والذي هو يمرضني ويشفين كما في قوله: **{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}** [(٧٩) سورة الشعراء] وإنما قال: **{وَإِذَا مَرِضْتُ}** فأضاف المرض إلى نفسه مع أن المرض إنما هو من الله - عز وجل -.

ومن أمثلة ذلك قول الله - عز وجل - في سورة الكهف عن الخضر: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}** [(٧٩) سورة الكهف]، فالخضر نسب العيب إلى نفسه، وأما في الجدار فقال: **{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}** [(٨٢) سورة الكهف] فلم يقل: فأردت أن يبلغا وإنما نسب ذلك الفضل إلى الله فقال: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ}** [(٨٢) سورة الكهف].

فهذا يذكره بعض أهل العلم، ويقولون هو من باب التأدب، ومما يذكرون في ذلك خطاب الله - عز وجل - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث قال: **{وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}** [(١-٣) سورة

الضحى]، قالوا: لم يوجه الخطاب إليه مباشرةً بقول: فلاك مع أن الأصل هكذا وإنما قال: **{وَمَا قَلَى}**، وبعضهم يقول: هذا الأسلوب أتى به مراعاةً للفاصلة.

وعلى كل حال فالمقصود هو التنبية على المعنى الذي ذكره ابن كثير أيًا كان، ولذلك فإن مثل هذه اللطائف لا يُقطع بها، وإنما هي ملح يرد على بعضها ما يرد من الاعتراضات، فما ذكر في قوله تعالى: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}** [سورة الفاتحة] يرد عليه أن هناك مواضع أخرى أضاف الله - عز وجل - فيها لنفسه أنه أضل أقواماً، وغضب على أقوام، كقوله تعالى: **{مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}** [سورة المائدة]، وكقوله: **{وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ}** [سورة الفتح] وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ}** [سورة الأعراف] وغير ذلك كثير.

فلا ينبغي للإنسان أن يتمسك بشيء من ذلك ويعضّ عليه بالنواجذ ويصارح عليه، فهي ملح تحتل الصواب وعدمه، والإمام الشاطبي ما يرى ذكرها أصلاً ولا الاشتغال بها.

وابن القيم -رحمه الله- حينما تكلم على أدب المرأة المسلمة ذكر في قوله تعالى: **{وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}** [سورة الذاريات] أن امرأة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما بشرتها الملائكة، قالت كلمتين تكفي كل واحدة للدلالة على تعذر الولد وهما كبر السن والعقم، ثم قال: أدب المرأة المسلمة ألا تسترسل في الحديث مع الرجال الأجانب بغير حاجة، وهذا الكلام من ابن القيم معناه صحيح، والاستدلال بهذه الآية استدلال جميل لكن يرد عليه أنها في الموضع الآخر قالت: **{يَا وَيَلَّتِي أُلْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}** [سورة هود]، فهنا تبين أنها لم تقل كلمتين، فالمقصود أنك إذا قرأت شيئاً وأعجبك فلا تظن أن مثل هذه الأشياء يقطع بها وأنها الحق الذي لا محيد عنه، وهكذا

ودع عنك قول: لو قال قائل كذا لكان ذلك له وجه، والذي أظنه أرجح في هذه المسألة كذا، فطالب العلم ما يصلح في مثل هذه المسائل أن يقول هذا أو يقول: والحق الذي لا مرية فيه، والصواب المقطوع به في هذه المسألة كذا وما عداه مطّرح، وفلان أبعد النجعة، واعلم أنك قد تقنّعت بشيء ثم تغير رأيك بعد فترة مع أنك قد جادلت وخاصمت على الرأي الأول وظننت أنه لا تردد ولا إشكال فيه، لذلك اترك هذه العبارات لأهلها وانظر إلى ما ينفك في دينك ودنياك.

"وقال: **{مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** [سورة الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن هذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون، ويحتجون على بدعتهم بمتشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: **{إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاخْذَرُوهُمْ}**"^(١).

يعني أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن، والمقصود به هنا في مثل هذا المثال، التشابه النسبي وليس التشابه المطلق من كل وجه الذي لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو حقائق الأمور الغيبية، وإنما التشابه

^١ - سيأتي تخريجه ص ٦.

النسبي هو الذي يخفى على البعض ويعلمه البعض، فطوائف القدرية مثلاً يأخذون ببعض النصوص التي تدل على أن الله - عز وجل - قدر الأقدار، وأنه يصرف خلقه كيف يشاء، وأنه يهديهم وأنه يضلهم، فهم يأخذون هذه النصوص ويقولون: الإنسان ليس له حيلة، فالله - عز وجل - هو الذي يهديه أو يضلّه، فهو كالريشة في مهب الريح.

وتأتي طائفة أخرى ويأخذون من النصوص ما يدل على إثبات فعل العبد، وأن العبد له قدرة وإرادة وما أشبه ذلك، ويتركون النصوص الأخرى ويقولون: إن العبد يستقل بفعله، وإن الرب - تبارك وتعالى - ليس له قدرة على أفعال العباد، فهو أراد هدايتهم فضلوا بإرادتهم واختيارهم ومشيتهم، فهؤلاء يأخذون جزءاً من النصوص، وهؤلاء يأخذون جزءاً من النصوص، فهذه طريقة أهل البدع، وهي طريقة تكون سبباً للانحراف في أي باب سلكت وليس فقط في باب القدر؛ لأن أي قضية تريد أن تسلك فيها هذا الطريق ستخطئ، فمثلاً: إذا أردت أن تتعامل مع أهل البدع بالنظر إلى النصوص الموثقة في الكتاب والسنة وأقوال السلف، وأخذت الطريقة التي ليس فيها إلا المفاصلة والمصارمة والهجر وما أشبه ذلك فإنك ستخرج بنتيجة غير صحيحة، وإذا نظرت إلى النصوص الأخرى ستجد أن التعامل الشرعي يختلف عن هذا، وكذلك العكس بالعكس، فمن نظر إلى الجانب الآخر ربما يحصل له مباسطة وانفتاح كامل، ويرى أن هؤلاء منه وهو منهم، وأنه ينبغي أن تذوب هذه الجبال من الجليد التي بينه وبينهم، وأنا نستطيع أن نندمج وأن ننصهر.. الخ، ومن هنا تأتي خطورة البرمجة العصبية حيث تجد هؤلاء المبرمجين ما عندهم مشكلة في أن يندمجوا مع كل أحد ولو كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأنه ينظر إلى الجوانب الإيجابية كما يقال: ينظر إلى نصف الكأس المليان، ولا ينظر إلى الجانب الآخر السلبي، وإنما ينظر من زاوية أن اليهود فيهم جوانب تتفق معهم فيها، والنصراني كذلك تستطيع أن تقترب منه ويقترّب منك، وأن تفهمه ويفهمك، وأن يحل الحوار بدلاً من المصادمة والمفاصلة، والمفارقة، فينتهي موضوع الولاء والبراء؛ لأنه مبني على الإقصاء، ورفض الآخر، والانكفاء على الذات، والتفوق والتمحور... الخ، وأعتذر عن هذه الكلمات التي ابتلينا بها وفي المقابل تركت الألفاظ الشرعية، فالمقصود أنه صار بعض طلاب العلم يسلك هذا الطريق وبالتالي كم جنت هذه الأمور على دين الله - عز وجل - وعلى أصحابها قبل كل شيء.

فالمقصود أن من نظر إلى النصوص من جهة واحدة فإنه يسلك طريقاً معوجة، وهذا الأمر له تعلق بثلاثة أشياء، له تعلق بالعلم، وله تعلق بالقصد، وله تعلق ثالث بالعقل، فتجد أن أمثال هؤلاء يكونون من ذوي العلم الناقص بحيث لم يسمعوا إلا نصين أو ثلاثة ويظنون أن هذه النصوص هي كل شيء في المسألة وانتهى الأمر، والعلامة عند هؤلاء الجهال أنك تجدهم دائماً يعبرون بعبارات قوية جداً ويفاصلون ويصرحون بأنهم مستعدون لكذا وكذا.... الخ.

ومن الأمور المؤدية إلى ذلك: القصد، أعني قصد الإنسان هو الذي يجعل من هذا الإنسان يسير في مثل هذه الطريق، فتجد عنده هوى يجعله يميل مع الشيء الذي يعجبه.

والأمر الثالث العقل أي عقل الإنسان وتركيبه، وأقصد بالعقل القلب، فطريقة تفكير الإنسان تؤثر تأثيراً واضحاً بيناً في مثل هذه الأمور، فتجده إذا نظر لا يستطيع أن ينظر بنظرة واسعة شاملة، وإنما ينظر بنظرة مبتسرة، فهذه الأمور الثلاثة هي أكثر ما يؤثر في سلوك الإنسان واعوجاجه. وهناك أمور أخرى ثانوية، لكن هذه الأشياء التي ذكرتها هي في ظني أنها أساسية، وتجعل الناس ينحرفون وخاصةً في أوقات الفتن كهذه الأيام التي نعيش فيها الآن..

"وقد ورد في الحديث الصحيح: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم))^(٢) يعني في قوله تعالى: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}** [٧] سورة آل عمران، فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله **{تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}** [٤٢] سورة فصلت]."

يلاحظ أنه يقول: ليس فيه حجة صحيحة، وأما ما يتعلقون به من القرآن فكل طائفة تقريباً تتعلق بأشياء من القرآن، والقرآن كما جاء في الأثر عن علي -رضي الله عنه- في وصيته لابن عباس: "حمالٌ ذو وجوه" أي أنه يحتمل معاني كثيرة، ولهذا أوصاه أن يجادل الخوارج بالسنة، وكذلك ثبت هذا عن أنس -رضي الله عنه- لما مر بابن له يتجادل مع رجلٍ من أهل الأهواء، فأمره أن يجادله بالسنة.

وكذلك ورد هذا عن جماعة مثل عمر -رضي الله عنه- وغير عمر، وعلى كل حال كان السلف يرون مجادلة أهل الأهواء بالسنة مع مجادلتهم لهم بالقرآن؛ لأن الاختصار في المجادلة على ما في القرآن من الآيات قد لا يجدي مع المخالف؛ لأن الآية تحتمل أكثر من وجه، فإذا بينتها السنة انتفى الاحتمال.

لكن المشكلة إذا كان هذا المجال ممن ينفي السنة ولا يؤمن بها بحيث إذا جئت له بالأحاديث قال لك: هؤلاء الصحابة أصلاً ارتدوا على أدبارهم، ونحن لا نصدق أحاديثهم ولا نقبلها، ويأتيك بأشياء مكذوبة عن أئمتهم، ويرى أن هؤلاء لهم العصمة، ثم بعد ذلك يستخرج هذه العقيدة من رأسه؛ لأنه قد ألغى السنة، والقرآن عنده يحتمل أكثر من وجه فهو يحمله على المعنى الذي يظنه، وهكذا نجد أن الشيطان قد عرف كيف الطريق إلى عقول كثير من الناس، والله المستعان.

أحياناً يفكر الإنسان ويقول: كيف يضلون وعندهم الكتاب والسنة؟! لكن إذا نظر نظرة تأمل وجد أن الشيطان قد وضع متاريس بينهم وبين الكتاب والسنة، لذلك إذا جئت إلى الرافضي تجد أنك لا يمكن أن تصل معه إلى نتيجة بطريق الكتاب والسنة؛ لأن السنة هذه كلها مرفوضة عنده، والقرآن عنده فيه آيات زائدة يرى أنها حذف، ويفسر الآيات بتفسيرات عجيبة، ففي قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}** [٦٧] سورة البقرة يقول: البقرة هي عائشة، والجبب والطاغوت في قوله تعالى: **{يَوْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** [٥١] سورة النساء يقولون: هما أبو بكر وعمر، فنقول له: ليس الأمر كذلك، فيقول لك: ليس تفسيرك أولى من تفسيري، وهذا في أقل الأحوال أنه يكون ممن درس البرمجة اللغوية، فهو يتنزل معك لمجادلتك على هذا الأساس.

² - أخرج البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

وإذا جئت للصوفي قال لك: يا أخي أنتم تأخذون علومكم من ميت عن ميت فتقولون: حدثنا فلان حدثنا فلان حدثنا فلان، أما نحن فقد حدثنا الحي الذي لا يموت، وأتى لك بتأويلات فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان. إذا جئت لمتكلم من المتكلمين فقلت له: كيف تؤمن بهذه العقائد الكلامية الفاسدة؟ قال لك: يا أخي هذا النص الذي أنت تتكلم عنه من الكتاب والسنة إن كان غير متواتر فلا يحتج به في العقائد، وإن كان متواتراً فيرد عليه قوادح عشرة في الدلالة بحيث تجعله محتملاً، وهذه قضايا تحتاج إلى قطع لا تقبل الاحتمال، فنقول له: فما الحل؟ يقول لك: الحل هو العقل؛ لأن هذا الأمر ينبغي أن يكون في القواطع من الأمور، فالعقائد لا تحتمل التشكيك، وهكذا يلغي الكتاب والسنة، ويدخل في مناهات العقول التي يختلف أصحابها غاية الاختلاف. ولذلك إذا رأيت عقائد أهل الكلام تجدها فلسفة وكأنك تقرأ لأرسطو أو أفلاطون، أو أمثال هؤلاء وما تقرأ كتاباً في العقيدة لأناس أنعم الله عليهم ببعثة خير نبي -عليه الصلاة والسلام-، وأنزل عليهم أشرف كتاب، إذا قرأت أي كتاب من كتب هؤلاء ما تجد قال الله كذا، أو قال رسول الله كذا، فأنه المستعان. "يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، مثل: يس، ويقال: آمين بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب.

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}** (٧) سورة الفاتحة فقال: ((آمين))، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته^(٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهم. وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا تلا: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}** قال: ((آمين)) حتى يسمع من يليه من الصف الأول"، رواه أبو داود وابن ماجه، وزاد فيه: فيرتج بها المسجد، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن^(٤).

هذه الزيادة: "فيرتج بها المسجد" فيها ضعف، والطريقة التي مشى عليها المختصرون هو ألا يذكرها من هذه الأحاديث إلا ما بلغ درجة القبول، سواء كان حسناً لغيره أو نحو ذلك، فبعض أهل العلم يحسن مثل هذه الرواية -يعني من باب الحسن لغيره- لكن على كل حال هذه الزيادة فيها ضعف لكن الأمر في هذا سهل، والمهم أن ثبوت التأمين لا شك فيه حيث توجد فيه أحاديث صحيحة.

"وعن بلال -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود." كل هذا وغيره يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يؤمن في الصلاة، أي: يقول آمين، ويجهر بذلك، ويؤمن أهل المسجد ويرفعون أصواتهم، وهي سنة ليست بواجبة في الصلاة، كما أن التأمين ليس من الفاتحة بالإجماع، أي أنه لم يوجد أحد قال: إنه من الفاتحة، ومعنى آمين أي اللهم استجب.

³ - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٣) (ج ١ / ص ٣٥١) والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في التأمين (٢٤٨) (ج ٢ / ص ٢٧) وأحمد (١٨٨٦٢) (ج ٤ / ص ٣١٥).

⁴ - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٥) (ج ١ / ص ٣٥٢) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الجهر بآمين (٨٥٣) (ج ١ / ص ٢٧٨) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٩٣٤).

"ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددوا الميم من آمين، مثل: **{آمِينَ النَّبِيِّتِ الْحَرَامِ}** [٢) سورة المائدة]".

والمعنى قاصدين، لكن هذا معنى بعيد جداً، ولا ينبغي للإنسان أن يقول في صلاته: آمين، وإنما يقول: آمين بمعنى اللهم استجب.

"قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة".

قوله: "ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة" هذا يرجع إلى التأمين، أي أنه يستحب أن يقول: آمين، وليس المقصود أنه يرجع إلى قول الحسن وجعفر من أنه يقول: آمين بالتشديد.

قال الشافعية: إن التأمين يكون في الصلاة وفي خارج الصلاة، فأنت إذا قرأت الفاتحة خارج الصلاة تقول: آمين، وقالوا: إن قرأ جهراً جهراً، وإن قرأ سراً أسراً، فهذا هو المقصود، وليس المقصود أنهم يقولون بتشديد الميم من آمين.

"قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال؛ لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))^(٥)، ولمسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه))^(٦)، قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص".

هذه المحامل الثلاثة الأقرب منها والموافق للسياق والذي تدل عليه الروايات الأخرى بشكل أصرح من هذا هو الزمان، بمعنى أنه يقع تأمين هذا الإنسان المصلي موافقاً لتأمين الملائكة في وقت واحد أو في لحظة واحدة، فإذا حصل هذا التوافق حصل الجزاء بالمغفرة.

ومن الروايات التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله- في هذا قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((من وافق تأمينه تأمين الملائكة))^(٧) لكن قد يقال: هذه محتملة إلى حد كبير، ونكر أوضح من هذه الرواية وهي قوله: ((وافقت إحداهما الأخرى))^(٨).

⁵ - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

⁶ - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

⁷ - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

⁸ - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

وتوجد عندنا روايات أخرى منها حديث أبي هريرة في رواية له: ((إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا: آمين، فإن الملائكة يقولون: آمين، وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له)) فهذا يدل على أن الموافقة تكون بالقول؛ ليقع ذلك متوافقاً.

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الطويل: ((إنما جعل الإمام ليؤتم به))^(٩) وفي آخره زيادة: ((وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين، فإذا وافق كلام الملائكة غفر لمن في المسجد))^(١٠)، وهذه رواية صحيحة تدل على أن المقصود الموافقة بالقول، والله أعلم.

"وفي صحيح مسلم عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((إذا قال -يعني الإمام- ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله))^(١١)، وقال الترمذي: معناه لا تخيب رجاءنا".

يلاحظ أن قوله: ((يجبكم الله)) يدل على أنها دعاء، بمعنى اللهم استجب، لا قاصدين آمين.
"وقال الأكثرون: معناه اللهم استجب لنا".

مسألة:

فهم بعض الفقهاء أن ابتداء تأمين الإمام يكون سابقاً لتأمين المأموم بقليل بحيث يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام، لا أن ينتظر المأموم حتى يفرغ الإمام من التأمين فهذا لا يقول به أحد فيما أعلم، وليس هذا الذي فهمه من أهل العلم بقاطع.

مسألة أخرى:

بالنسبة لموافقة تأمين الإنسان تأمين الملائكة معناه أنه إذا قال الإمام: آمين بعد الفراغ من الفاتحة، فإنه ومن معه يرجو أن تحصل له موافقة الملائكة في التأمين؛ لأن الملائكة تقول: آمين بعد أن يقول الإمام ولا الضالين، فالإنسان يقولها ويرجو أن يحصل له ذلك، لكنه لا يستطيع أن يعلم أو يقطع أنه وافق أو لم يوافق.

تفسير سورة البقرة

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))^(١٢) وقال الترمذي: حسن صحيح".

⁹ - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٥٦) (ج ١ / ص ٢٤٤) ومسلم في كتاب الصلاة - باب انتمام المأموم بالإمام (٤١٢) (ج ١ / ص ٣٠٩).

¹⁰ - أخرجه بهذه الزيادة ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦) (ج ١ / ص ٢٧٦) وقال السندي: هذا الحديث صححه مسلم ولا عبرة بتضعيف من ضعفه، وقال عنه الشيخ الألباني: حسن صحيح.

¹¹ - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة (٤٠٤) (ج ١ / ص ٣٠٣).

¹² - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ / ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج ١ / ص ٨٦).

فقله هنا: ((البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -بالبناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبد الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رعوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زربية أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقري سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمى عليه حيث كان فيه مس، وكان يشغل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول أن يمد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"^(١٣) ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها يجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"^(١٤).

¹³ - سنن النسائي الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ / ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢ / ص ٨٦).

¹⁴ - سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص ٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.
وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"^(١٥)، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق"^(١٦).

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))^(١٧) رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه.

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة)) ورد فيها أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يرى أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: ((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة)) ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرفهم: والله يا رسول الله ما معني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقروه وأقروه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثله جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثله جراب وكى على مسك))^(١٨) هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلًا فالله أعلم.

15 - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنه منقطع، الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

16 - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

17 - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج ٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

18 - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن - باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٥٤١).

معنى: ((جرب وكى على مسك)): يعني رُبط فلا تظهر رائحته.
وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.
والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.